السيميائية إشكاليـــــة المصطلح-المفهوم- الإجـــــراء

أ. نعيمة محمد مفتاح الفــلاح ــ كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية.
الجامعة الأسمرية الإسلامية، زليتن.
n.alfalah@asmarya.edu.ly

الملخـــــــص:

يتلخّص هـــذا البحث ، في الكشــف عن جدلية المصطلح السيميائي ، من حيث التعدد المصطلحيّ وعلاقتــه بالخلفية المعرفية للمصطلح ، وتحـــديد أهم الفُروقات المعرفية والمنهجية بين السيمولوجيا والسيموطيقا، وهي إشكالية وقع فيها النقاد العرب عند ترجمة المصطلح وتحديد مفهومه. ثم توضيح علاقة السيميائية الغربية وتطورها عبر مراحلها المختلفة ، بالإشارات السيميائية العربية في التراث العربي القديم، وصولاً إلى مفهوم السيميائية الغربيـــة في الدراسات الحديثة في القرن العشرين، وتحديد وظيفتها، ومن ثم دراسة اتجاهاتها وإجراءاتها المنهجية.

الكلمات المفتاحيـــــة:

السيميائية - سيمولوجيا- سيموطيقا- شارل سندرس بيرس- فرديناند دوسوسير.

المقدمـــــــة :

تُعــد السيميائيـــة علمًا واسعًا وشموليا، له جـــذوره المعرفية الأبستمولوجية المتنوعة والمختلفة، حظيت باهتمام العديد من أصحاب الفكر والفلسفة والأيديولوجيات الدينية، وغيرها من التوجهات الفكرية باختلاف مشاربها وأصولها عبر الزمن، تبحث في ماهية العلامة في الكون والوجود والإنسان، عبر أنساق لغوية وغير لغوية.

إشكاليـــة البحث :

يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الإشكالية الآتية:

ما الفرق بين مصطلحي سيمولوجيا، وسيموطيقا؟ وما الخلفية المعرفية للمصطلحين؟ وما تاريخ السيميائية؟ وهل توجد إشارات سيميائية في التراث العربي؟ وكيف تلقى النقد العربي المصطلح السيميائي؟ وما مفهوم السيميائية؟ وما موضوعها؟ وماهي اتجاهات السيميائية؟ وما إجراءاتها؟

ومع المصطلح السيميائي نحـــن أمام بيئتين مختلفتين ولدتا المصطلح وهما:

البيئة الأمريكية والأوروبية ، وبالتالي أصبح لدينا مصطلحان، إضافة إلى إشكالية التلقي العربي للمصطلح الغربي، من حيث الترجمة والتداول.

وتكمن أهميته في الكشف عن المعنى وتفسيره، عبر قنوات التواصل العديدة اللغوية منها وغير اللغوية.

لذا تشعبت اتجاهاتها ومناهجها، وانفتحت على مجالات معرفية مختلفة، مما جعلها موضع جدل فيما يخص مفاهيمها وموضوعاتها ومصطلحاتها واتجاهاتها.

إن المصطلح السيميائي كغيره من المصطلحات، يظل وليد تجاذبات فكرية وله مرجعيات وخلفيات معرفية متعددة، إلا أن العامل الإشكالي في المصطلح هو تداوله بمفاهيم وأسماء مختلفة، نتيجة للخلط المصطلحي ، الذي قد يكون سببه نشأة المصطلح في ظل الاختلاف الفكري والفلسفي.

أهـــداف البحث:

في هذا البحث سنعرض لأهم المحاور التي سنبني عليها تصورًا مفاهيميًا وأبستمولوجيا للمصطلح السيميائي، ومفهومه ، ومن ثم الاتجاهات الإجرائية للسيميائيه في مقاربتها للنصوص.

وتتمثل المحاور في الآتـــــي:

ــ التداخل الإشكالي بين المصطلحين (السيميولوجيا/ السيموطيقا) ، وتاريخ التصور المفاهيمي للعلامة ، والمصطلح بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي من حيث: المعجم العربـــي والتراث العربي القديم من خلال: الجاحظ (الدلالة بين اللفظ والإشارة) وأبو هلال العسكري (قصدية العلامة) والجرجاني (اعتباطية العلامة) وابن عربي (الدلالة اللغوية ومراتب الوجود).

ــ مفهوم السيميائية.

ــ وظيفة السيميائية.

ــ التلقي العربي للمصطلح السيميائي وإشكالية الترجمة.

ـ الاتجاهات السيميائية.

ــ الإجراء السيميائي.

الســـــــيميولوجيا (Semiologie):

يحيل المصطلـــح على علم العلامات ، الـذي تنبأ به العالم اللغوي السويسري فرديناند دوسوسيرF.De Saussure ، في إحـــدى محاضراته، التي جمعها طلابه من بعده في كتاب (دروس في علم اللغة العام) حيث يقول: "يمكننا أن نتصور علمًا موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءًا من علم النفس الاجتماعي وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات- Semiology- ويوضح علم الإشارات ماهية مقومات الإشارات، وماهية القواعد التي تتحكم فيها. ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود إلى حد الآن، لم يكن التكهن بطبيعته

وماهيته، ولكن له حق الظهور إلى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام..."[1] ، والملاحظ على كلام دوسوسير، أنه استخدم مصطلح سيميولوجيا، وأنه اعتبر اللسانيات جزءًا من علم العلامات (الإشارات). غير أن رولان بارت يعاكس دوسوسير في مقولته تلك، يقول: "إن اللسانيات ليست فرعًا من السيمياء، حتى ولو كان هذا الفرع ذا حظوة، بل إن السيمياء هي التي تشكل فرعًا من اللسانيات"[2]، ويرى أن ما هو غير لغوي لا يمكن أن يعبر عنه إلا باللغة، داعمًا قوله بما قدمه في كتابه (نظام الموضة) ، حيث درس الموضة كما تصورها الجرائد وليس كما تُعرض حقيقة [3] وبالعودة إلى الجـذر اللغــوي للمصطلح سيمولوجيا، فإنه يتكون "من الأصل اليوناني Semeion الذي يعني : علامة، وLogos الذي يعني خطاب... ، وبامتداد أكبر كلمة Logos تعني : العلم ، فالسيميولوجيا هي علم العلامات"[4]. غير أن فيصل الأحمر في كتابه (معجم السيميائيات) [5]، يذكر نفس المصدر لمصطلح السيموطيقا، وليس السيمولوجيا، وهنا يكمن الإشكال في الخلط بين المصطلحين، واعتبارهما مصطلحًا واحدًا.

السيميوطيقا (Semiotique):

تزامنا مع إشارات دوسوسير لميلاد السيميولوجيا **سنة 1916م**، نجد في الطـــرف الآخر من يقول بنشوء هذا العلم حقيقة وليس مجرد تنبؤ أو افتراض ، وهو الفيلسوف الأمريكي شارل سندرس بيرس C. S. Peirce، الذي أطلق عليه اسم سيموطيقا: "ليس المنطق بمفهومه العام إلا اسما آخــر للسيموطيقا، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية، أو نظرية شكلية للعلامات"[6] ، وإن كان بيرس قد تأثر بجون لوك في استعارته لمصطلح semeiotic، الذي كان يُشير إلى علم اللغة عند لوك [7]، إلا أن بيرس بذل جهدًا كبيرا في تطور المفهوم، وفق إطار معرفي شمل المنطق والفيزياء والكيمياء ، هذا الجهد البيرسي جعل الكثيرين ينسبون الفضل في تطور السيميائيات إليه، ومنهم جوليا كريستيفا حيث تقول: "نحن مدينون فعلا لشارل ساندرس بيرس بالاستخدام الحديث لمصطلح السيميائيات"[8] ، وبالرجوع إلى الجذر اللغوي للمصطلح، فإن " Semiotique، يتكــوّن من الجذرين Semio، Tique، حيث إن الجذر الأول الوارد في اللاتينية يأتي على صورتين Semio، وSema، يعني إشارة أو علامة، أو ما تسمى بالفرنسية Signe، وبالإنجليزية Signe، في حين أن الجذر الثاني هو علم، وبالجمع بين المصطلحين ينشأ علم العلامات، أو الإشارات"[9]. وبذلك يحيل المصطلحين على علم العلامات ، غير أن هناك اختلافًا معرفيًا وأبستيمولوجياً بين سيمولوجيا دوسوسير وسيموطيقا بيرس ، يوجهنا هذا الاختلاف لطرح سؤال الخلفية المعرفية للمصطلحين، وأهم الفوارق بينهما.

سيميولوجيا دوسوسير/ سيميوطيقا بيرس. رغم أن المصطلحين يشيران إلى دراسة

أنظمة العلامات، سواء اللغوية كما عند دوسوسير، أو غير اللغوية كما عند بيرس، إلا أنه ثمت خلفية معرفية تحكم هذين المصطلحين، وتحدد توجههما المفاهيمي، يمكن توضيحها في الآتـــي:

1- تتم دراسة العلامات اللغوية عند دوسوسير ضمن الحياة الاجتماعية، باعتبار أن اللغة "نظام إشاري يمتاز بالأفضلية والاتساع أكثر من غيره"[10]، فكان الاعتماد على اللغة دون غيرها، وإن كان دوسوسير يرى _كما سبق ذكره_ أن اللسانيات جزء من السيمولوجيا، إلا أن الدراسة الفعلية للسيمولوجيا لم تكن إلا في حدود اللغة.

2- أما بيرس فقد ربط هذا العلم بالمنطـــــق، "ليجد من خلاله أحد معاني السيموطيقا"[11]، واهتم بدراسة الدليل اللغوي من وجهة فلسفية خالصة. وبذا يكون الاختلاف ما بين الوظيفة الاجتماعية للعلامة، ووظيفتها المنطقية الفلسفية.

3- استلهم سوسير مرجعيته من نظرية إميل دوركايم، بينما تعود مرجعية بيرس إلى الظاهراتية والرياضيات والإنثروبولوجيا السلوكية [12].

4- ارتبطت السيميائيات اللغوية(سوسير) بالمرجعية الثقافية الأوروبية، وفي المقابل ارتبطت السيميائيات غير اللغوية (بيرس)بمرجعيتها الثقافية الأمريكية [13].

5- وبحسب يلمسليف، فإن السيميائية أو (السيموطيقا) تنسب إلى الإجراء السيميائي، بينما تنسب السيمولوجيا إلى النظرية العامة للسيميائيات.

6- الاختلاف الابستيمولوجي بين المصطلحين، جعل الأول (Semiologie) مرتبطًا بالاتجاهات المتفرعة عن سوسير، وجعل الآخر (Semiotique) مرتبطًا بالاتجاهات والمباحث المتفرعة عن بيرس [14].

8- حدد بيرس ثلاث اتجاهات للسيموطيقا: التداولية ، والدلالية ، والسياقية. وكان لهذه الاتجاهات تأثيرًا فيما بعد على موريس وتشومسكي وغيرهما. أما سوسير فقد مهد لسيمولوجيا بارت الاجتماعية، كما نتج عنه (سوسير)، اتجاهان يستندان إلى علم الدلالة والتواصل [15].

9- تحددت سيمولوجيا دوسوسير في العلاقة بين ثنائية الدال والمدلول، بينما توسعت سيموطيقا بيرس لتشمل ثلاثية: الدال (المصورة)، والمدلول (المفسرة)، والموضوع.\

10- أخذ بنيفينست على سيمولوجيا سوسير اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، حيث رأى أن تلك الاعتباطية لا تتحدد وفق الثنائية اللسانية كما يتصورها سوسير، بل تتشكل بين العلامة (الدال والمدلول)، والمرجع المشار إليه، الذي أهمله دوسوسير. أما ما أخذه بنيفينست على بيرس، أن الأخير جعل العلامة هي أصل العالم، ومن ثم كل العلامات ستحيل على علامات أخرى، وفق دائرة مغلقة لا تنتهي [16].

وما يمكن أن يجمع بين المصطلحين، هو اهتمام أصحابهما بالتعريف الأساسي للعلامة، مع الاختلاف في تطوير هذه العلامة من قِبل بيرس، ومن أتوا بعده [17].

تاريخ التصـــــور المفاهيمي للسيميائية:

إن ارتباط المصطلح السيميائي بالعلمين السيميائيين (دوسوسير/بيرس)، لا يعني ذلك حداثة المصطلح، وإن كان تطور المصطلح مفاهيميًا وإجرائيًا يُعزى لجهود كليهما مع بدايات القرن العشرين، غير أننا نجد استعمالات عديدة له، في ميادين معرفية مختلفة، نحاول تقديم تلك المراحل التاريخية لنشوء المصطلح بإيجاز [18]:

-مرحلة المدرسة الشكية الإغريقية (القرن الأول قبل الميلاد)، حيث نشأ التأمل في العلامة من مبدأ التشكيك في المعرفة، وليس البحث عنها، وقد تشكلت أهداف تلك المدرسة من مبدأ تحليل العلامات غير الظاهرة.

-استفاد الطب التجريبي من مبادئ المدرسة الشكية في تصنيف العلامات المستترة، والتمييز بين العلامات العامة والخاصة.

- استخدم أطباء الإغريق مصطلح (Semiotike) بمعنى التشريح ، كما استخدم المصطلح نفسه عند أطباء العصور الوسطى ولكن بمعنى مختلف (ملاحظة أعراض المرض) [19].

- مرحلة السيموطيقا اليونانية (أفلاطون وأرسطو)، فقد استخدم أفلاطون مصطلح **(Semiotike)**، في تصنيف علامات الفكر ضمن منطق فلسفي شامل [20].

- مرحلة الرواقيين (القرن الثالث قبل الميلاد)، وإشاراتهم إلى العلامة بجانبيها الدال والمدلول، وقد سبقوا في ذلك ثنائية سوسير.

- مرحلة العصر الوسيط، والمتمثلة في جهود المفكر الجزائري القديس أوغسطين (354-430)، ودوره في تأكيد التواصل والتوصيل في معالجة العلامة، بالإضافة إلى تمييزه بين العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية، وبين وظيفة العلامات عند الحيوانات، ووظيفتها عند البشر [21].

- مرحلة العصور الوسطى، شملت هذه المرحلة ثلة من الفلاسفة والموسوعيين، الذين كان لهم تأثير كبير في تطور السيميائيات في العصر الحديث، من خلال تأملهم في العلامات واللغة، ومن هؤلاء رينيه ديكارت (1591-1650)، الفيلسوف الرياضي، الذي شكلت جهوده منطلقا لسيميائيات بيرس.

- مرحلة عصر النهضة، مع الفيلسوف والموسوعي لايبنتز (1646-1716)، حيث جاء حديثه عن العلامات ضمن الفلسفة وأصل الوجود، فمعرفة الوجود عنده تتطلب معرفة العلامات المشكلة له[22]، وقد استعان بالجبر والرياضيات في الكشف عن دور العلامات في المنهج العلمي [23].

- وفي أعقاب تلك المرحلة، تأتي جهود الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632-1704)، بإحداثه نقلة نوعية في رسم معالم السيميائيات وربطها بنظرية المعرفة، ونقاشه الجاد حول العلامة اللسانية وجدل الوظيفة التواصلية والمعرفية للعلامة [24].

وإلى جانب السبق المعرفي، ينسب له السبق المصطلحي أيضا، حيث استعمل مصطلح Semiotica تارة بمعنى مناهج المعرفة الفلسفية، وتارة بمعنى نظرية العلامات [25].

-مرحلة القرن العشرين، وينسب لهذه المرحلة التأسيس الفعلي لعلم مستقل بالسيميائيات على يدي العالم اللساني دوسوسير(1857-1913) صاحب تسمية (سيمولوجيا)، وفق منطلق لساني اجتماعي، والعالم المنطقي الرياضي بيرس(1838-1914) وتسميته (سيموطيقا)، وفق منطلق منطقي فلسفي رياضي.

كما تعد جهود دوسوسير وبيرس منطلقًا لسيميائيات حديثة، تعددت اتجاهاتها على يد مجموعة من العلماء كموريس وغريماس وبارت وامبرتو إيكو وجوليا كريستيفا وغيرهم.

في المعجـــــم:

إن مصطلحات: السيميائية والسيمائية، والسيمياء، والسيماء، تعود إلى المعجمية العربية الثلاثة [26]: سما، سوم، وسم، حيث يأتي من الأولى: السموّ والاسم، والثانية: السومة والسيمة والسيما، والسيمى والسيميا، والسيمياء، والثالثة: السمة والوسم والوسام والميسم، وكلها تحيل إلى العلامة. حيث ورد في لسان العرب "السيمة والسيمياء العلامة، وسوّم الفرس جعل عليه السيمة، ويقول الجوهري السُّومة بالضم العلامة، تجعل على الشاة"[27].

وقد وردت (سيما) في القرآن الكريم، وكلها أتت بمعنى (علامـــة): قال تعالى - **(تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)** [سورة البقرة ، الآية: 273] ، **(وَعَلَى الْأَعْـــرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ)** [الأعراف ، الآية: 46] ، **(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ)** [سورة محمد ، الآية 30] **(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)** [سورة الفتح ، الآية: 29]، وقال - تعالى - **: (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)**[سور الرحمن الآية : 41] ، وقال - تعالى - : (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [سورة آل عمران ، الآية 14] ، وقال - تعالى - **: (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)**[سورة هود الآية 83]، وقال - تعالى - :**(مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)** [سورة الذاريات الآية 34]

في التراث العربي القديم:

إن البحث في العلامة عند العرب قديمًا، ليس هدفًا لإثبات الأسبقية أو التأصيل المعرفي لها، وإنما هو بحث في الملامح السيميائية التي حوتها كتب المفكرين واللغويين والفلاسفة العرب، لذا سيحاول هذا الطرح استجلاء تلك الملامح والشذرات السيميائية بشكل موجز؛ لخصوصية هذه الدراسة البحثية الملخصة والمختصرة:

الجاحظ (الدلالة بين اللفظ والإشارة):

يُقســـــم الجاحظ الدلالات على المعاني إلــى خمسة أقسام، مقدمًا اللغة على بقية العلامات الأخرى: "... أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقتصر على تلك الدلالات"[28] ثم يوضح كيفية الدلالة، وعلاقة الإشارة باللفظ: "الدلالة باللفظ، فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب، وبالمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف... والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[29].

من خلال إشارات الجاحظ، يتبين أن البحث في المعنى وما تنتجه من دلالة، سواء كان باللفظ أو الإشارة، هو من أهداف السيميائيات الحديثة، حيث تبحث تلك السيميائيات في أنساق الدلائل كلها، وبخاصة سيميائيات بارت الدلالية.

كما أن الحديث عن اللفظ والإشارة لا يبتعد عن تفريعات بيرس للعلامة: الإشارة، القرينة، الرمز، الأيقونة.

أبو هلال العســـــكري (قصدية العلامة): قد تنبه أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن الدلالة إلى القصد وعدم القصد في تأويل العلامة، ومن ذلك قوله: "...يمكن أن يستدل بها أقصد فاعلها ذلك أو لم يقصد والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك... ،وآثار اللص تدل عليه وهو لم يقصد ذلك، وما هو معروف في عرف اللغويين يقولون استدللنا عليه بأثره وليس هو فاعل لأثره قصدًا"[30].

وهي إشكالية أثارتها الدراسات السيميائية الحديثة حول الوظيفة العلاماتية والمقصدية، بين اتجاهين مهمين من اتجاهات السيميائية، التواصلي والدلالي، سيتم توضيحها لاحقًا عند الحديث عن الاتجاهات السيميائية.

الجرجـــــاني (اعتباطية العلامة) : تحدث الجرجاني في كتابه أســـرار البلاغة ، عن العلاقة بين الدال والمدلول، واعتباطية هذه العلاقة، حيث يقول: "إن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات. ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلًا عليه وخلافه"[31]، وقوله في دلائل الإعجاز: "إن الألفاظ أدلة على المعاني، وليس للدليل إلا أن يعلمك الشيء على ما يكون عليه"[32]، وللجرجاني جهوده فيما يعرف بالتحول الدلالي، وذلك عند حديثه عن أقسام الكلام: "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[33]. وكلامه هذا جاء وفق ما يتحدث عنه الحداثيون تحت مصطلح معنى المعنى عند ريتشارد[34].

بن عربـــــــــي (الدلالة اللغوية ومراتب الوجود): يعقد لحميداني في كتابه القراءة وتوليد الدلالة، مقارنة بين مراتب الوجود عند ابن عربي، وحالات الوجود عند أفلاطون، ومقولات الوجود عند بيرس كالآتي [35]:

أفلاطون	الوجود الطبيعي (المثال)	عمل الصانع	عمل المصور
ابن عربي	وجود لا بشرط شيء	وجود بشرط شيء	وجود بشرط لا شيء
ساندرس بيرس	الأولانية	الثانيانية	الثالثانية

موضحًا اقتراب ابن عربي ومراتب الدلالة عنده، من مراتب بيرس وعلاقته بالدليل، وخاصة ما جاء في قول ابن عربي في كتابه فصوص الحكم: "ومعلوم أن هذه الأمور الكلية، وإن كانت معقولة فإنها معدومة العين موجودة الحكم، كما هو محكوم عليها إذا نسبت إلى الوجود العيني"[36].

وبحسب لحميداني، فإن تلك الأمور الكلية، والحكم عليها، ونسبتها إلى وجود ذهني، تُولّد عالمًا دلاليًا يقترب من دلالات بيرس السيميائية[37].

من خلال ما سبق، نتبين أن الفكر العربي القديم بأصوله الفلسفية، واللغوية، والبلاغية، والصوفية، وغيرها من التوجهات الفكرية الأخرى، كان مرتبطًا بقضايا الدلالة وإنتاج المعنى، وهي إشارات سيميائية مهمة، لاتشير إلى التبلور المفاهيمي للسيميائية كما هو في القرن العشرين، لكنها محاولات قيمة في فهم الدلالة وإنتاجية المعنى.

التلقي العربي للمصطلح السيميائي وإشكالية الترجمة:

إن التضارب في الترجمات العربية للمصطلحين، ناتج عن الاختلافات الموجودة في البحوث السيميائية الأوروبية، حيث صرح غريماس في جريدة لوموند Le Mond سنة 1974م قائلاً: "أعتقد أنه لا يجب أن نولي أهمية للنزاع حول الكلمات في الوقت الذي تنتظرنا فيه أشياء كثيرة. عندما تعلق الأمر منذ ست سنوات [1968]، بإنشاء جمعية دولية كان يجب أن نختار بين المصطلحين. تحت تأثير جاكبسون، وبالاتفاق مع ليفي ستروس وبنفنيست وبارث وأنا شخصيا، وقع اختيارنا على (**السيميائية**). غير أن لمصطلح السيميولوجيا جذور عميقة في فرنسا مما أدى إلى الاحتفاظ بالتسميتين ... بناء على نصيحة يالمسليف يمكن أن نفهم من السيميائيات البحوث الخصوصية المتعلقة بالمجالات الخصوصية، وتكون السيميولوجيا النظرية العامة لكل هذه السيميائيات"[38].

إن هذا الاقتباس يشير إلى أمرين مهمين حقيقةً، الأول: التفطن لأهمية الوعي بالتعدد المصطلحي وتأثيره على البعد المفاهيمي، والآخر: الحاجة العلمية لتوحيد المصطلح عبر تنظيم مؤتمرات علمية توحد الجهود في الاتفاق على مصطلح موحد، بعيداً عن التخبط المنهجي والمفاهيمي.

وإذا كان الوسط الغربي قد عانى من التخبط المصطلحي، فكيف بالتلقي العربي للمصطلح؟!

الحقيقة هي: أننا أمام فوضى مصطلحية، لم تكن الترجمة السبب الوحيد لها، وإنما عدم الوعي بالخلفية المعرفية لنشوء المصطلح، ومن ثم تعدد اللغات المترجم عنها.

وقد جمع يوسف وغليسي وحصر كثيرا من الترجمات العربية لمصطلحي Semiologie و Semiotique، فوجد 36 مصطلحاً: السيميائيات، السيميائيات، السيميائية، السيمائية، السيميوتية، السيميات، السيامة، السماتية، السيمياء، علم السيمياء، السيميولوجيا، الساميولوجيا، علم السيمانتيك، علم السيميولوجيا، السيميوطيقا، السيميوتيكا، السميوتيكية، علم الرموز، الرموزية، علم الدلالة، علم الدلالات، الدلائليات، علم الدلائل، علم الأدلة، علم الدلالة اللفظية، الدلائلي، الدلالية، العلامية، العلاماتية، علم العلامات، علم العلاقات، علم الإشارات، نظرية الإشارة، الأعراضية، دراسة المعنى في حالة سنكرونية[39]. فقد لاحظ وغليسي أننا أمام معادلة (2=36)، بينما في المقابل الغربي تكون المعادلة (2=2).

الأمر الآخر أن المصطلحات تعددت أحياناً حسب الترجمة الحرفية، وأحيانًا حسب المفهوم، وأحيانًا أخرى تتيه بعيدًا عن هذا وذاك، فقد يخرج عن شروط المصطلح العلمي وحدّه الاصطلاحي، كما في (دراسة المعنى في حالة سنكرونية)، أوتتداخل العلوم والتخصصات، كالجمع بين الدلالة والسيمولوجيا، فالأخير يدرس العلاقة بين الدال والمدلول، في حين لا تهتم الدلالة إلا بالمدلول، ودلالة اللغة، حيث لا يعنيها أنظمة التواصل غير اللسانية، ومن ثم انتهجت التحليل البنيوي للنصوص [40].

مفهوم السيميائيـــــــة:

إن السيميائية هي علم العلامات أو الإشارات، هذا المفهوم الواسع والمتشابك يستمد ديناميته من أصول وحقول معرفية مختلفة، كاللسانيات، والفلسفة، والمنطق، وعلم النفس، والإنثروبولوجيا، والفينومينولوجيا... ولذا يرى سعيد بن كراد أن السيميائية ليست تيارًا واحدًا، أو نظرية معرفية جاهزة، وإنما هي البحث في كيفية إنتاج المعنى واستهلاكه [41]، أو كما عرفها إمبرتو ايكو، بأنها "تهتم بكل ما يمكن اعتباره إشارة"[42]. فالبحث عن العلامة وما تنتجه هذه العلامة من معنى ودلالة، هو ما تحوم حوله السيميائية في مفهومها العام.

وإن تشعب المفهوم، إلا أن السيميائية استطاعت أن تتبنى لنفسها موضوعًا للدرس، وأن يكون لها طرقاً خاصة في الرؤية والتحليل، وهذا بدوره يجرنا إلى سؤالين: الموضوع والإجراء، فما موضوع السيميائية؟

موضوع السيميائـــــــة:

تهتم السيميائيات بكل ما ينتمي إلى السلوك الإنساني، لسانيًا أو أي نسق تواصلي. فالبحث عن المعنى وكيفية وجود هذا المعنى من موضوعات السيميائية، وللوصول إلى الدلالة التي تنتجها مجموعة من المعاني، يجب أن تدخل تلك المعاني في سيرورة، "ما

يطلق عليه في الاصطلاح السيميولوجي (**Semiosis**) السيميوز، وهو الفعل المؤدي إلى عملية إنتاج الدلالات وتداولها، فإن كل واقعة تستند من أجل إنتاج دلالتها إلى سيرورة داخلية تجمع بين العناصر المكونة لها"[43].

وبذلك لا تهتم السيميائية بمجرد البحث في أي سلوك إنساني، دون أن يكون هذا السلوك ضمن إطاره المرجعي المجتمعي، ومن ثم الثقافي. ومن هنا يمكن تصور السيرورة الدلالية موضوعاً للسيميائيات بحسب بيرس، أما العلامة اللسانية فهي موضوع سيمولوجيا دوسوسير.

السيميائية (الاتجاهات والإجراء):

قبل أن نلج الإجراء السيميائي أو المنهج السيميائي نود التعريج على أهم اتجاهات السيميائية ومدارسها، باعتبارها المدخل الإجرائي للسيميائية، فما هي هذه الاتجاهات؟

استنادًا إلى تصورات سوسير وبيرس في دراستهما للعلامة، انبثقت اتجاهات سيميائية مختلفة، قسم النقاد تلك الاتجاهات بحسب المنشأ، فبرز الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الروسي، والاتجاه الفرنسي، الذي بدوره انقسم إلى فروع [44]:

سيميائيات التواصل والإبلاغ كما عند جورج مونان.

سيميائيات الدلالة، الذي انقسم إلى:

اتجاه بارت وميتز والذي يحاول تطبيق اللغة على الأنساق غير اللغوية.

اتجاه مدرسة باريس الذي يضم: ميشيل أريفي وكلود كوكيه وغريماس.

اتجاه السيميوطيقا المادية مع جوليا كرستيفا.

اتجاه الأشكال الرمزية مع مولينو وجان جاك ناتيي.

كما أن هناك تقسيما آخر للاتجاهات السيميائية: سيميولوجيا التواصل، سيميولوجيا الدلالة، سيميوطيقا بيرس، سيميولوجيا الثقافة مع الباحثين الروس (يوري لوتمان، واوس بانسكي، وايفانوف وطوبوروف)، والباحثين الإيطاليين (امبرتو ايكو، وروسي لاندي).

غير أن التقسيم الشائع للاتجهات السيميائية هو [45]: سيميائيات التواصل، وسيميائيات الدلالة، وسيميائيات الثقافة.

وهو تقسيم وظيفي، أي بحسب وظيفة العلامة، فسيميائيات التواصل تقوم على أن وظيفة اللسان الأساسية التواصل، بينما في الاتجاه الدلالي والذي يتزعمه رولان بارت، يرى أن البحث السيميائي هو دراسة الأنظمة الدالة، وذلك من خلال التركيز على الثنائيات اللسانية: اللغة/الكلام، الدال/ المدلول، التقرير/ الإيحاء، المركب/ النظام، أما سيميائيات الثقافة فيستفيد هذا الاتجاه من الفلسفة الماركسية (لوتمان وإيكو وكريستيفا)، ويقوم على اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقًا دلالية.

والفرق بين الاتجاهين التواصلي والدلالي هو القصدية في العلامة، وهي إشكالية أثارت موضوع جدل بين الفريقين (46)، فسيميائيوا التواصل يرون أن طبيعة العلامة يجب أن تكون ذات وظيفة تواصلية، وأن يكون هذا التواصل قصدياً لغرض التأثير والإبلاغ، ومن ثم يكون تركيب العلامة (دال- مدلول- قصد)، أما سيميائيوا الدلالة، فلا غاية لهم في القصدية، وإنما الاهتمام بالجانب التأويلي للعلامة. غير أن العلاقة بين الاتجاهين التواصلي والدلالي قد تكون تكاملية لا ضدية، إذا ما تم الجمع والتوفيق بين (المرسل/ الدلالي) و(المتلقي/ التواصلي)، عند دراسة اشتغال العلامات، ومن ثم اشتمال تلك الدراسات على المظهرين معًا (47).

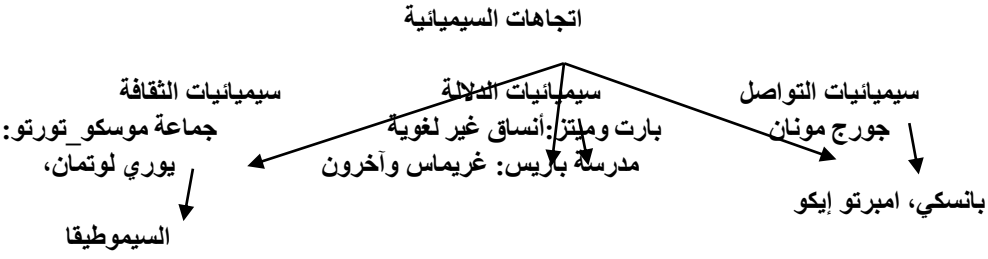

شكل توضيحي (1) اتجاهات السيميائية

وبعد توضيح الاتجاهات السيميائية، ننتقل إلى السؤال الثاني: ما الإجراء السيميائي؟ من خلال تلك الاتجاهات السيميائية يمكن تحديد الإجراء السيميائي على مختلف الحقول، حيث التعامل مع العلامة إما أن يكون من خلال علاقاتها مع العلامات الأخرى وهو ما يسمى بالنحو السيميائي، أو التعامل مع العلامة من خلال علاقاتها بمراجعها والتأويل الذي تنتجه كما في الدلاليات السيميائية، أو التعامل مع العلامة من خلال علاقاتها مع المرسل من جهة، ومع المتلقي من جهة أخرى، وهو ما يمكن أن يسمى بالتداوليات السيميائية.

وبناء على هذه المستويات يمكننا أن نقيم دراسة لأي نص من النصوص.

الخاتمـــــــــة:

يمكن تلخيص ما تــم التوصل إليه في الآتـــــــي:

ـ نشوء المصطلح السيميائي في بيئتين مختلفتين: الأوروبي والأمريكي، أدى ذلك إلى توليد مصطلحين: (السيمولوجيا/**Semiologie**) و (السيموطيقا/ **Semiotique**).

ـ الخلفية المعرفية والأبستمولوجية للمصطلحين لم تكن واحدة ، بل تنوعت بين الحقل الفلسفي اليوناني واللساني والمنطقي، كما استعمل المصطلح في حقول الطب العلاجي والنفسي.
ـ التقابل اللغوي للمصطلح بين العربي والأجنبي أي (Sema/ سيما)، ومن ثم التقابل في المفهوم.
ـ عـدم الاتفاق غربيًا على الاستعمال التداولي لمصطلح واحد، رغم الاتفاق نظريًا على اعتماد مصطلح السيميائية في الحقول النظرية والمنهجية؛ وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن شيوع المصطلح وتداوله وبالتالي تعميمه، أهم من الاتفاق النظري. وأيضا يمكن أن يؤول السبب إلى التعصب الفرنسي إلى استخدام مصطلح سيميولوجيا.
ـ انعكاس الخلط المصطلحي على التلقي العربي للمصطلح، وذلك من حيث الترجمة والتداول، مما أدى إلى توليد أكثر من 36 مصطلحًا عربيًا مقابلًا لمصطلحين أجنبيين.
ـ الفوضى المصطلحية العربية كانت نتيجة عدم فهم خلفيات المصطلح، وعدم الاتفاق على التداول المصطلحي، وبالتالي برز الاشتغال الفردي في ترجمة المصطلح.
ـ تخطي الشروط العلمية والحدود المتفق عليها في ترجمة المصطلح، فأحيانا حسب الترجمة الحرفية، وأحيانا حسب المفهوم، وأحيانا أخرى تتيه بعيدا عن هذا وذاك، وقد يخرج عن شروط المصطلح العلمي وحدّه الاصطلاحي، كما في (دراسة المعنى في حالة سنكرونية!).
ـ البحث عن العلامة، ودراسة الدلالة، لم تكن مرتبطة بالدرس السيميائي الحديث، بل تجذرت مفاهيمها لتشمل العصور القديمة، اليونانية، والوسيط، والوسطى، وعصر النهضة.
ـ لم يكن التراث العربي القديم بمنأى عن البحث في أنساق الدلالة، وظهور الإشارات السيميائية في كتب التراث دليل على ذلك.
ـ تعد دراسات ســوسير أساس السيمولوجيا ، بينما دراسات بيرس أساس السيموطيقا.
ـ تشكلت سيميائية سوسير من ثنائيــة الدال والمدلول، بينما تجاوز بيرس الثنائية إلى الثلاثية، مضيفا المرجع للعلامة.
ـ تتسم العلامة عند سوسير بالاعتباطية في علاقتها بين الدال والمدلول ، بينما تتوسّـع تلك العلاقة لتشمل العلامات غير اللغوية عن بيرس.
ـ تنــوع الخلفية المعرفية لسيميائيات سوسير وبيرس، لتشمل حقول معرفية مختلفة كعلم النفس والاجتماع والمنطق والفلسفة... مما أدى إلى توسع مفهوم عالم السيميائيات ليشمل كل ما يخص النشاط الإنساني.
ـ تعدد الاتجاهات السيميائية تبعًا لتعدد التوجه الفكري لأصحاب تلك الاتجاهات، وأشهر تلك الاتجاهات هي، الاتجاه التواصلي، والاتجاه الدلالي، والاتجاه الثقافي.

ـ تحدد الإجراء السيميائي بناء على الاتجاهات السيميائية المختلفة، فتعددت نتيجة لذلك طرق البحث عن العلامة.

الهوامـــــــــــش:

1- علم اللغة العام، دي سوسير، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م، ص34.
2- نقلا عن: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، عبد الواحد لمرابط، مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، المغرب، ط1، 2005م، ص31.
3- ينظر: المرجع نفسه، ص224. وأسس السيميائية، دانيال تشاندلر، ترجمة: طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، ص37-38.
4- ما هي السيميولوجيا، برنار توسان، ترجمة: محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، ص9.
5- ينظر: معجم السيميائيات، خلف الأحمر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م، ص11-12.
6- السيميائية: أصولها وقواعدها، رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، د.ط، 2002م، ص26.
7- ينظر: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، شركة دار الياس العصرية، 1986، ص172.
8- علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1991م، ص15.
9- السيميائية الشعرية، فيصل الأحمر، جمعية الإمتاع والمؤانسة، الجزائر، د.ط، ص10.
10- معجم السيميائيات، خلف الأحمر، ص17.
11- مدخل إلى السيميوطيقا، (مقالات مترجمة ودراسات)، أمينة رشيد، ص52.
12- ينظر: حقول سيميائية، محمد التهامي العماري، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، د.ط. ص7.
13- ينظر: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، يوسف وغليسي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م، 228.
14- ينظر: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، مرجع سابق، ص13.
15- ينظر: مدخل إلى السيميوطيقا، مرجع سابق، ص52.
16- ينظر، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، عبد الله إبراهيم وآخرون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الجزائر، ط2، 1996م. ص76-77.
17- أسس السيميائية، دانيال تشاندر، مرجع سابق، ص30.
18- مدخل إلى السيموطيقيا، مدخل استهلالي، فريال جبوري غزول، ص14-16.
19- ينظر: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، مرجع سابق، ص14.
20- ما هي السيمولوجيا، مرجع سابق، ص50.
21- ينظر: العلاماتية وعلم النص، نصوص مترجمة، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص14.
22- ينظر: معجم السيميائيات، مرجع سابق، ص25.
23- ينظر: علم العلامات، مدخل استهلالي، فريال غزول، ص16.
24- ينظر: الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005م، ص70،88.
25- نقلا عن: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، مرجع سابق، ص14. وينظر، العلاماتية وعلم النص، مرجع سابق، ص16.
26- إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مرجع سابق، ص238.
27- ينظر: مادة (س،و،م)، لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
28- البيان والتبيين، الجاحظ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2004م، ج1، ص 57.
29- المرجع نفسه، ص 57.

30- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق، محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر، ص68.
31- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، ص 266.
32- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص483
33- المرجع نفسه، ص173.
34- ينظر: معجم السيميائيات، مرجع سابق، ص34.
35- ينظر: القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة الدلالة، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003م، ص177.
36- فصوص الحكم، محي الدين ابن عربي، تحقيق وشرح أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، ص83.
37- ينظر: القراءة وتوليد الدلالة، مرجع سابق، ص177.
38- قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، رشيد بن مالك، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص184، 185.
39- إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مرجع سابق، ص233.
40- ينظر: ما هي السمولوجيا، مرجع سابق، ص19-20.
41- ينظر: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بن كراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط3، 2012م ص12.
42- نقلا عن: أسس السيميائية، مرجع سابق، ص28.
43- السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص33.
44- ينظر: مخاضرات في السيمولوجيا، محمد السرغيني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1987م، ص55. وملخص للاتجاهات السيميائية في كتاب معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص84-111.
45- ينظر: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ترجمة: حميد لحميداني وآخرون، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، 1987م، ص7-8.
46- ينظر: حقول سيميائية، مرجع سابق، ص19-23.
47- ينظر، المرجع نفسه، ص 22-23.